

من تاريخ اللغة العربية (٣)

اللهجات العربية

د. مسعود بوبو
جامعة دمشق

من أبرز أسس علم اللغة عند اللغويين المحدثين ربط هذا العلم بالعلوم الأخرى ، كعلم النفس ، والاجتماع ، والاجناس ، والجغرافية ، والتاريخ .. وغيرها من العلوم الإنسانية .. ويتنامى هذا الاتجاه نحو ربط علم اللغة بالعلوم التقنية والتطبيقية وما يتصل بذلك من الآلات والأجهزة الدقيقة .. ولقد أدرك مؤرخونا في وقت مبكر طبيعة علاقة اللغة بالتاريخ ، فوصفوا أحوال اللغة العربية في فصاحتها ولحنها ولهجاتها في الأقاليم والأمصار ، وأحوال متكلميها من عرب وأعاجم وقادة فتوح ورجال دين رافقوا طلائع الفتوحات وكانت مهماتهم تعليم العربية والإسلام لمن يدخلون الدين الإسلامي ، أو توكل اليهم وظائف إدارية في الدولة العربية الإسلامية ، ومما يشار إليه من ذلك على سبيل المثال ما كتبه « البلاذري » في كتابه « فتوح البلدان » و « الهمداني » في « صفة جزيرة العرب » و « المقدسي » في « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » . فلقد عرض هؤلاء - وغيرهم - في كتبهم لأحوال اللغة واللهجات استكمالا لأبحاثهم التاريخية ، ورصدا لتطور العربية وانتشارها في الأفاق ، فكانوا بذلك سباقين إلى إدراك ما لصلة اللغة بالتاريخ من أثر وأهمية لا يمكن إغفالهما . لكن بحث المؤرخين في هذا الميدان لم يكن كافيا ، ولم يعن بتتبع التفاصيل ، أو يفرد كتباً باعيانها لهذا الغرض .. إنما كان ذلك من شأن اللغويين الذين استقصوا أوضاع اللغة على السنة متكلميها فكانت جهودهم موزعة بين الأحكام النظرية والجدل العلمي ، وبين البحث الميداني التطبيقي . وكانت ظواهر اللحن والمعيارية واللهجات وتعليم العربية ، من الهموم الكبرى التي شغلت بال الخلفاء والأمراء والعلماء ، وكان استقراء تلك الظواهر منطلقاً موضوعياً وسبيلاً سليماً إلى إيجاد الحلول المناسبة لتفادي مضاعفاتها السلبية على اللغة القومية ولغة الدين الإسلامي .. وكان مبدأ تنقية اللغة ، ووضع القواعد ودراسة اللهجات واللغات ، ووضع كتب « لحن العامة » ... كل ذلك وغيره كان لصون العربية ، ولترسيخ وحدتها ، ولتعميم فصاحتها .. وفي الوقت نفسه كانت تلك الجهود لونا من التأريخ عند العرب .

نشرت الحلقة الأولى من هذه الدراسات في العدد ٢٣/٢٤ (١٩٨٩) من مجلة دراسات تاريخية ونشرت الحلقة الثانية في العدد ٢٨/٢٧ (١٩٩٠) من المجلة .

دراسات تاريخية ، العددان ٤٧ و ٤٨ ، أيلول - كانون الأول ١٩٩٣ .

وقبل أن نقف عند الظواهر اللهجية ومصطلحاتها أو مسمياتها نعرض بإيجاز لمفهوم اللهجة في نشأته اللغوية ، ومن ثم تطوره الى ما انتهى اليه في الاصطلاح .

يقول ابن فارس : « اللام والهاء والجيم اصل صحيح يدل على المثابرة على الشيء وملازمته ، وأصل اخر يدل على اختلاط في أمر » (١) . ثم يقول : « واللهجة : اللسان ، بما ينطق به من الكلام . وسميت لهجة لان كلا يلهج بلفته وكلامه » . ويقول ابن منظور : « واللَّهْجَةُ واللَّهْجَةُ - بإسكان الهاء وفتحها - : طرف اللسان . . وجرس الكلام . ويقال : فلان فصيح اللهجة واللهجة ، وهي لفته التي جبل عليها فاعتادها ونشأ عليها » (١) .

وهكذا يمكن القول ان اللهجة تعني اليوم لغة الانسان المتمثلة بمجموعة من العادات الصوتية التي ألفها الانسان منذ الصغر ودرج على أدائها . ويرى الدكتور ابراهيم أنيس ان اللهجة : « مجموعة من الصفات اللغوية ، تنتمي الى بيئة خاصة ، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة » (٢) . وهذا قول عام ربما كان يصلح لتصوير مفهوم اللهجة في الحاضر أكثر من الماضي ، وفي أية لغة : لا في العربية وحدها . وأما مفهوم اللهجة في العربية فقد كان يطلق عليه أصلا مصطلح « اللغة » عند القدماء ، أي أنه لم يكن عندهم بمثل هذا التصور ، ولم يكن على وجه اليقين « مجموعة من الصفات اللغوية » ، بل كان أحيانا يعني انفراد قبيلة بعينها بصفة لغوية بعينها (كما سنعرض بعد قليل) . وفي مثل هذه الحال يبدو مفهوم اللهجة أضيق من هذا التعريف ، وأكثر خصوصية . أما اذا كانت هنالك مجموعة من الخصائص العامة الواضحة والسمات اللغوية المميزة فاننا عندئذ لا نتردد في تسمية تلك الظاهرة لهجة ، وخاصة عندما يصعب التوفيق لدى المقارنة بين أساليب الاداء اللغوي في هذه البيئة أو تلك . ويكون الاختلاف اللغوي بين اللهجات نسبيا ، أي أن مظاهر التشابه والاتفاق بينها أكثر من مظاهر التباين ، وعلى ذلك فان عملية الاتصال والفهم والتخاطب تتم في سهولة ويسر بين متكلمي تلك اللهجات . وتلك هي الصورة التي كانت عليها اللهجات العربية عامة كما يستخلص من تتبعها وفق ما عالجتها كتب التراث ، وباستقراءها في شيء من التأمل والانابة يمكننا ان نلاحظ أن أبرز مظاهر الاختلاف بينها ترجع الى خصائص نظمية أو عادات صوتية ، لا الى قضايا لغوية أساسية كنظام الجملة ، أو أزمنة الفعل ، وتقسيم الكلام ، والفصائل اللغوية ، وأدوات الربط والتعريف والتنكير والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث وما شابه ذلك . . وأما ما ساقه اللغويون من أمثلة تخالف القواعد المطردة للغة العربية الفصحى المشتركة فقد كانت أمثلة قليلة ، وكان قدر غير قليل منها مصنوعا وضعه النحاة لأغراض مختلفة ، أو قوموه وفق أحكام لغوية تتأثر بمنزلة لهجة قريش التي تبواتها في فترة لاحقة ، عندما سمت بها المكانة

الدينية حتى جعلت منها محتكما في معايير الفصاحة ورجحان سلامة القراءات القرآنية عند اختلافهم فيها .

وقد اتخذ مفهوم اللهجة أحيانا طابعا معياريا بالنظر الى اللغة المثالية المشتركة ، لغة الفكر والادب ، من شعر ونثر وخطب وأمثال وحكم ومواعظ . . فكل ما لم يتفق مع هذه اللغة المشتركة عند لهجة أحيانا ، وصنف أحيانا بين مراتب الفصاحة الدنيا ، وذلك في وقت بدأ العرب - بقبائلهم المختلفة - يقتنعون فيه أن هناك لغة عربية موحدة تكاد تكون محل قبول واجماع . . لغة خالية من الخواص المحلية ، وبالمقياس اليها سمي اللغويون ما انفردت به بعض القبائل «لغات» أو لهجات . ولم تكن تلك الصفات اللغوية تتعدى بعض ظواهر النطق ، أو الابدال ، أو الدلالة المختلفة . وأشهر تلك اللهجات :

١ - الكشكشة ، وهي الحاق الشين بكاف المخاطبة ، أو ابدال كاف المخاطبة شينا في الوقف ، لأن منهم من يثبت الكاف في الوقف ، ومنهم من يثبتها في الوصل ، ومنهم من يجعل الشين مكان الكاف ويكسرهما في الوصل ويسكنهما في الوقف (٣) ، كقولهم : رايتكش ، واكرمتكش ، وبكش ، وعليكش ، وأبوكش . أو رايتش ، وأبوش ، وعليش السلام . .

وتعزى هذه اللهجة الى قبائل : تميم وربيعة ومضر وبكر وبعض بني أسد لتجاوز هذه القبائل في الإقامة ، ومن الشواهد الشعرية على هذه اللهجة قول المجنون :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منش دقيق(٤)

ويروى البيت بغير عزو ، وباختلاف في الشطر الثاني على النحو التالي :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولونش الا أنها غير عاطل(٥)

ومما روي من الشعر بهذه اللهجة لبعضهم :

علي فيما ابتغي أبغيش

بيضاء ترضيني ولا ترضيش

وتطلّني ودّ بني أبيش

إذا دنوت جعلت تنثيش

واذا نأيت جعلت تدنيش
وان تكلمت حثت في فيش
حتى تنقي كنيق الديش(٦)

وما خلا هذه الشواهد فأقوال تتوزعها كتب اللغة للتمثيل على هذه الظاهرة النطقية يبدو من خلالها أن الحاق الشين بكاف المؤنثة لا شاهد له من شعر أو نثر . وأحيانا يضعون السين عوضا عن الشين في المواضع السابقة فتسمى اللهجة عندئذ « الكسكية » وقد عرفت في بكر (بكر من هوازن ، لا بكر بن وائل من ربيعة) وتميم وأسد وبعض بني ربيعة ومضر وهوازن(٧) .

٢ - العننة : اي نطق الهمزة عيناً في قبيلة تميم ومن جاورهم كبعض قيس وأسد ، وطيء(٨)، وبعض بني كلاب بن عامر بن صعصعة (ينتهي نسبهم الى قيس) . وبعض اللغويين يجعلون هذا النطق خاصا بالحرف (أن) المفتوح الهمزة مع تشديد النون أو تسكينها ، ويعزون ذلك الى تميم التي تقول في موضع (أن) : عن . وبعضهم ، كالسيوطي يشترط أن يبدأ بالهمزة ، بصرف النظر عن تقييد حركتها بالفتح ، كما يتضح من الأمثلة ، يقول : « وهي (اي العننة) في كثير من العرب في لغة قيس وتميم ، تجعل الهمزة المبدوء بها عيناً ، فيقولون في أنك : (عنك) ، وفي : أسلم : (عسلم) ، وفي : أذن : (عدن) »(٩) . ومن الشواهد الشعرية المروية بهذه اللهجة قول ذي الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم ؟(١٠)

اي : أن ترسمت . ومن ذلك قول ابن هرمة :

أعن تغنت على ساق مطوقة ورقاء تدعو هديلا فوق أعواد(١١)

وقول جرّان العود :

فما أبُنَّ حتى قلن يا ليت عننا تراب وعن الارض بالناس تخسف(١٢)

وعن الخليل بن أحمد الفراهيدي قوله : قال شاعرهم :

ان الفؤاد عن الزلفاء قد كمدا وجها موشك عن يصدع الكبد(١٣)

ويبدو أن ظاهرة « العننة » هذه ترجع الى تجاوز مخرجي العين والهمزة الحلقيتين ، اذ ان مثل هذا التبادل بين حروف الحلق : (الهمزة والهاء والعين والخاء والحاء والفين) شائع في كتب الابدال ، أو أنها تفسر بالمبالغة في تحقيق الهمز عند التميميين ، ولعل « الداني » من هنا قال : « فحيث ما وقعت العين وقعت الهمزة مكانها ، فنقول في : آمنوا : عامنوا ، وفي : وآتى المال : وعاتى المال ، وفي : خاسئين : خاسمين ، وفي قوله : متكئون : متكمون » (١٤) .

ويبدو أن تقييد السيوطي هذا الابدال بالابتداء ، أو بأول الكلام غير مطلق ، أو استغراقي ، لأن امثلة من النصوص جاء فيها ابدال الهمزة عيناً وهي في الوسط ، فقد جاء في « اللسان » ، في مادة « عف » أن العنقوان يجوز أن يكون الاصل فيه : أنقوان . ثم نقل : « وسمعت بعض بني تميم يقول : اعتنفت الامر بمعنى : ائتنفته ، واعتنفتا المرامي : اي رعيناً أنفها . وبنو تميم يقولون : هذا خباعنا ، يريدون : هذا خباؤنا » (١٥) .

٣ - الفحفة : اي ابدال الحاء عيناً كقراءة بعضهم : « عتى حين » ، وكقولهم : قم عتى آتيك ، أي حتى حين ، وحتى آتيك (١٦) . وقد نسبت هذه اللهجة الى هذيل وثقيف . وفي عزوها الى هزيل يقول ابن مالك : « قرأ ابن مسعود : (ليسجننه عتى حين) ، فكتب اليه عمران أن الله أنزل هذا القرآن عربياً ، وأنزله بلغة قريش ، فلا تقرأهم بلغة هذيل » (١٧) .

ولعل الابدال هنا كان فراراً من تكرار حر في الحاء باحلال العين محل الحاء الاولى ، وسهل هذا أو سوغه كون الحرفين (العين والحاء) كليهما من حروف الحلق ، ولهذا قال ابن جني : « لولا بحة في الحاء لكانت عيناً » (١٨) .

٤ - الاستنطاء : اي ابدال العين الساكنة نونا اذا اوليتها الطاء نحو : أعطى ، يقال : أنطى . وبها قرئت الآية الكريمة (إنا أنطيناك الكوثر) ومن الشواهد الشعرية لهذه اللهجة قول الاعشى :

جبادك في القيظ في نعمة تصان الجلال وتنطى الشعر (١٩)

وقد نسب اللغويون هذه اللهجة الى قبائل : هذيل والازد وقيس وبعض الانصار في يثرب ، والى أهل اليمن (٢٠) . ومن الملاحظ أن الشواهد لهذه اللهجة قد اقتصر على الابدال في الفعل « أعطى » وحده (٢١) مع أن العربية لم تألف الابدال بين العين

والنون ، بل هو ابدال مستبعد لاختلاف الصوتين في المخرج والحيز والصفة . ولعلها لهجة خاصة جدا ، او من بقايا الاصول السامية ..

هـ - التضعج ، أو الإمالة في تميم وقيس وأسد ، أي نطق الفتحة نطقا يسمع صوتا بين الفتحة الصريحة والكسرة الصريحة ، وفي ذلك يقول سيبويه :

« والالف تمال اذا كان بعدها حرف مكسور ، وذلك قولك : عابد ، وعالم ، ومساجد ، ومفاتيح .. وانما أمالوها للكسرة التي بعدها ، أرادوا أن يقربوها منها ، وجميع هذا لا يميله أهل الحجاز » (٢٢) .

وهذا يعني أن للمحيط الصوتي والمماثلة Assimilation أثرهما في النطق كما يرى اللغويون المحدثون ، ولكنه أثر عارض تزيله مجاورة الاحرف المستعلية في مخارجها ، كما يفسر سيبويه نفسه حيث يقول :

فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه السبعة : الصاد والضاد والطاء والظاء والغين والقاف والخاء ، اذا كان حرف منها قبل الالف تليه ، ذاك قولك : قاعد ، غائب ، وضامن ، وظالم . وانما منعت هذه الإمالة لانها حروف مستعلية الى الحنك الاعلى » (٢٣) .

ويستفاد من كتب اللغة ان هذه اللهجات التي اتينا على ذكرها كانت منتشرة بين قبائل شمال الجزيرة العربية وهم من العدنانية المضرية ، وانها لم تكن عامة حتى في افراد القبيلة الواحدة مما يشير الى احتمال وجود ازدواج لغوي يتمثل في لغة ادبية عالية ، ولهجات محكية ، كما الملحنا من قبل .

وقد نسب اللغويون الى القحطانيين مثل هذه الظواهر اللهجية نحو :

١ - التلتلة : اي كسر اول المضارع المفتوح ، يقولون : تعلمون ، وتعرفون ، ونحن نعرف ، وهو يعرف .. وتنسب هذه اللهجة الى قبائل : تميم وبهراء وأسد وربيعة وعقيل وغيرهم (٢٤) ، وغالبا ما يقال : تلتلة بهراء . ومن شواهدهم فيها قول حكيم ابن معية الربعي :

لو قلت ما في قومها لم تيشم

يفضلها في حسب وميسم (٢٥)

و « تيشم » من الاثم ، أبدلت همزة الفعل ياء لتوافق حركة المضارعة المكسورة فقال : تيشم عوضا من « تئثم » . ومن المرجح أن هذه الظاهرة أعم وأكثر انتشارا مما ذكرنا من قبائل العرب ، بل لعلها أعم من الفتح الذي هو في لغة قریش وأسد ، في قراءتهم : (نستعين) وغيرهم يكسرها (٢٦) . ويرى بعضهم أنها ظاهرة سامية مامة تشترك فيها مع العربية : العبرية ، والسريانية والحبشية (٢٧) .

وملخص ما ذكره سيبويه في هذه المسألة أن جميع العرب من غير أهل الحجاز يكسرون أوائل الافعال المضارعة مما كان ماضيه على فَعِلَ ، فيقولون : أنا أعلم ، وأنت تعلم ، ونحن نعلم . الا ما كان اوله ياء فانهم يفتحونه طلبا للاستخفاف فيقولون : يعلم ، كالحجازية . وقد جاء عن بعضهم كسر الياء اذا كان فاء الفعل واوا نحو: وجل ، ووحل ، فانهم اذا بنوا منه يفعل فروا من ثقل الواو بعد الياء فكسروا الياء لتتقلب الواو ياء فقالوا : ييجل . . وبعضهم قام : ياجل . وآخرون قالوا : ييجل (٢٨) .

٢ - العجمجة : أي قلب الياء المشدودة جيما نحو قولهم في تميمي : تميمج . ومن ذلك ما يروى عن الاصمعي عن خلف الاحمر عن رجل من أهل البادية ، أو عن راجز قال :

خالي عويف وأبو علج
المطعمان الشحم بالعشج
وبالفداة فلق البرنج
يقلع بالود وبالصيصح (٢٩)

أجرى الراجز الوصل مجرى الوقف ، وكان حرف الجيم في هذه الالفاظ عوضا من حرف الياء المشدد ، أي أن الالفاظ على الاصل : العشى ، البرني (نوع من جيد التمر) ، الصيصي والصيصية : (شوكة الحائك يسوي بها السداة واللحمة ، أو قرن البقرة . .) وأنشد أبو الفول (الطهوي) للمفضل الضبي ، لبعض أهل اليمن :

يا رب ان كنت قبلت حجتج
فلا يزال شاحج يأتيك بج
أحمر " نهات ينزي وقرتج (٣٠)

ويروى : (اقر) نهات ، (يعني حمارا أو بغلا يصعد صوته من صدره) .
 ويلحظ في الفاظ هذا الشاهد أن الياء التي قلبت جيما لم تكن مشددة ، مع أن
 السيوطي نص على التشديد في قوله : « ومن ذلك المعجزة في لغة قضاة ، يجعلون
 الياء المشددة جيما ، يقولون في تميمي : تميمج » (٢١) . غير أن أبا الطيب اللغوي يورد
 من أبي عمرو قوله : « وهم يقلبون الياء الخفيفة أيضا إلى الجيم . قال الفراء : وذلك
 في بني دبر من بني أسد خاصة » (٢٢) . ويتفق هذا الإطلاق مع ما ذكره سيبويه حيث لم
 يقيد هذا الإبدال بالياء المشددة ، إنما قال :

« وأما أناس من بني سعد فأنهم يبدلون الجيم مكان الياء في الوقف ، لأنها خفيه
 فأبدلوا من موضعها أئين الحروف ، وذلك قولهم : هذا تميمج ، يريدون : (تميمي) ،
 وهذا عليح ، يريدون : (علي) . وسمعت بعضهم يقول : عربانج ، يريد : (عرباني) » (٢٣) .
 المهم في كلام سيبويه هنا أنه يجعل الإبدال بين صوتي الياء والجيم ، لا حصرا بالياء
 المشددة ، وإنما قيد ذلك بالوقف . ويبدو أن الوقف هو الذي أدى إلى سماع هذا
 الصوت ، نتيجة لتشديد آخر الكلمة ، سواء في الياء المشددة نفسها ، أم « الخفية »
 كما سماها أبو الطيب اللغوي ، أم « الخفيفة » كما سماها سيبويه . فالتشديد هنا
 إذا بولغ فيه قليلا اختلط صوتا الياء والجيم المجهوران اختلاطا يجعلهما شبه متحدثين
 في الصوت المسموع كما هما متحدثان في حيز المخرج الذي هو غار الفم أو سقف الحنك
 الصلب ، أي أن الياء التي تتصف بالرخاوة تكتسب بتشديدها بعضا من شدة الجيم ،
 وفي الجيم شدة ورخاوة . وفوق هذا فإن قوة سماع الصوت بدقة كافية هي المعول
 عليها قبل كل شيء في تحليل هذه الظاهرة اللهجية ، ولأن صوت هذه الجيم كما كان
 ينطق فعلا لم يسجل ، فإن الوصف وحده ليس كافيا لحكم نهائي ، إلا أن إبدال الياء
 من الجيم أو العكس لهجة كانت مسموعة على ما نقلت كتب التراث العربي ، من ذلك
 قول بعض بني تميم « شيرة » في الشجرة ، وعلى ذلك أنشدت أم الهيثم :

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى فابعدكن الله من شيرات

تريد : « شجرات » (٢٤) . ولا تزال آثار هذه اللهجة مسموعة إلى اليوم في بعض
 مناطق الخليج العربي .

وتنسب المعجزة إلى قضاة وبعض بني سعد وبعض بني حنظلة وطيء وفقيم
 وبني دبر ، كما تنسب إلى بعض أهل اليمن (٢٥) ، وإلى ناس من بني تميم على ما جاء
 في شرح « الشافية » ، وهو : « يبدل ناس من بني تميم الجيم مكان الياء في الوقف ،
 شديدة كانت الياء أو خفيفة » (٢٦) .

٣ - الطمطممانية : اي ابدال لام التعريف ميمًا ، وتنسب هذه اللهجة الى قبائل حمير باليمن الجنوبي الجزيرة العربية (ولا تزال مسموعة الى اليوم ، وخاصة في الشريط الاوسط المحاذي لتهامة من اليمن ، وفي تهامة بصفة عامة ، وحجة ، ودهم ، وارحب ..) ، كما تنسب الى طيء والازد ، يقولون في : طاب الهواء ، وصفا الجو : طاب امهواء ، وصفا امجو . ومنه الحديث الشريف : (ليس من امبر امصيام في اسفر) ، اي : ليس من البر الصيام في السفر (٢٧) . ومن الشواهد الشعرية في ذلك قول احد الطائيين :

ذاك خليلي وذو يعاتبني يرمي ورائي بامسهم وامسلمه

أي : يرمي ورائي بالسهم والسلمة (٢٨) . وربما تعلق هذه الظاهرة اللهجية بالابدال الشائع بين اللام والميم الذي « كثيرا ما يقع في اللغات السامية » (٢٩) . وتكون العربية قد ورثته منها وابقت عليه في جملة هذه الظواهر اللهجية .

٤ - الوهم : اي كسر الهاء في ضمير الغائبين المتصل نحو : منهم ، بينهم ، (بكسر الهاء فيها جميعا) . والنطق المشهور لهذه الهاءات الضم ، الا ما كان منها مسبوقا بياء او بكسرة نحو : فيهم ، في منازلهم ، ماضيهم .. فالهاءات في هذه الحال تنطق مكسورة بتأثير ما يسمى بقانون المماثلة Assimilation ، كما سلفت الاشارة في الحديث عن التضجع او الامالة . غير ان قبيلة كلب (٤٠) اليمانية التي تنسب اليها هذه الظاهرة النطقية تساوي بين تلك الحالات كلها فتنتطقها بالكسر مطلقا ، سواء اكانت سبقت بياء او كسر ام لم تسبق .

٥ - الوكس : وتلك ظاهرة لهجية كالوهم من الناحية الصوتية الا انها تسمع في نطق الكاف من ضمير المخاطبين بالكسر نحو : عليكم ، بكم ، اذا سبق بياء او بكسر ، ويمرئ هذا ايضا الى قبيلة كلب اليمانية او الى ربيعة منها (٤١) .

٦ - الشنشنة ، وهي - لغة - : الخلق ، والطبيعة ، والعادة الغالبة ، ولهجة : جعل كاف الخطاب شينًا مطلقا ، لا كما حصر في « الكشكشة » بكاف المؤنثة ، ويمثلون لذلك بقول بعض أهل اليمن : « لبش اللهم لبش » في : لبك اللهم لبك ، وينسب ذلك الى بعض القبائل اليمنية ، وربما انفرد ابن عبد ربه بعزو هذه اللهجة الى قبيلة تغلب (٤٢) .

الى جانب هذه الالقب تتناقل كتب اللغة ظواهر لهجية اقل شيوعا ، او ربما كانت اقل دورانا على الالسنه فلم تحظ بكثير من الاهتمام حتى بدت احيانا غامضة ،

أو ليست محل اجماع في مفهومها العام ، أو الاصطلاحي ، من ذلك : العجرفية التي يسوقها ابن فارس والامام ثعلب الى جانب العنينة ، والكشكشة وغيرهما ، في نص غير متطابق أو موحد مفاده أن قريشا أفصح العرب لانها « ارتفعت عن عنينة تميم ، وتلتله بهراء ، وكشكشة ربيعة .. وعجرفية ضبة » (٤٣) . أو : « لا تجد في كلامهم عنينة تميم ، ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد .. » (٤٤) .

وبعينا من هذا أمران : الاول ان العجرفية نسبت الى ضبة وقيس ، ولعل الارجح انها تنسب الى ضبة كما ذكر الامام ثعلب . والامر الثاني انها لم تشرح أو تفسر الا في بعض المعاجم ، كقولهم : العجرفية : الجفوة ، والاقدام في هوج (٤٥) ، أو هي : جفوة في الكلام (٤٦) ، أو التقمر وطلب الغريب الوحشي من الكلام (٤٧) .

ومن ذلك أيضا :

الخلخانية ، أي العجمة في المنطق ، يقال : اتانا رجل فيه لخلخانية ، ورجل لخلخاني اذا كان لا يفصح (٤٨) . والخلخانية أيضا نقص بعض حروف الكلم في الادراج والوصل ، يقولون في : ما شاء الله : (مشا الله) . ويعزى ذلك الى أعراب الشحر ، وعُمان . وشبيه بهذا :

القطعة ، أي قطع اللفظ قبل اسماع تمامه ، نحو : (يا أبا الحكا) أي : يا أبا الحكم . ومن هذه الظواهر اللهجية :

الوتم : أي قلب السين تاء ، كقول علباء بن أرقم :

يا قبح الله بني السُّعَلاتِ
عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا اعفاء ولا اكيات (٤٩)

يعني : شرار الناس ، والاكياس (جمع كيّس وهو الظريف) . وتنسب هذه اللهجة الى أهل اليمن (٥٠) . ومن تلك اللهجات :

الغمغمة : أي أن تسمع الصوت ، ولا يتبين لك تقطيع الحروف ، أي أصوات بغير تمييز أو افصاح ، وينسب ذلك الى قضاة (٥١) .

وثمة ظواهر لهجية كالفراتية ، واللكنة وغيرهما مما عرضت له كتب التراث مرصا ولم يقف الدارسون طويلا عنده ، وهذا ما يؤيد بعض اشارات الباحثين المحدثين الى ان اللهجات العربية القديمة لم تدرس دراسة منهجية تفرد لها خالصة ، ولم تقتص شواهدا وابعادها ، او تحلل تحليللا لغويا معلا ، بل توزعتها كتب اللغة والنحو والحن والمعاجم وكتب الثقافة الادبية العامة والكتب التي عرفت باسم «اللغات في القرآن» (٥٢).

كما توزعت تلك الظواهر اللهجية « لغات القبائل » التي ينسب اقدم كتاب منها الى يونس بن جبيب البصري (ت ١٨٢ هـ) ، ثم الى لغويين آخرين كالفرء (ت ٢٠٧ هـ) ، وابي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ) ، وابي زيد الانصاري (ت ٢١٥ هـ) والاصمعي (ت ٢١٦ هـ) وعمرو بن ابي عمرو الشيباني (ت ٢٣١ هـ) ، وابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) ، وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في معالجه لشيء من هذا الجانب في كتابه « ادب الكاتب » ، وابن دريد (ت ٣٢١ هـ) في معجمه « جمهرة اللغة » ، وابن سيده الاندلسي (ت ٤٥٨ هـ) في « المخصص » .

نخلص من هذا الى القول ان « هناك حقيقة مهمة في تاريخ العربية هي ان اللهجات التي عرضوا لها ليست (لهجات عامية) كما نفهمها في العصر الحديث ، وانما هي (عناصر لغوية) تنتسب الى قبائل معينة ، وقد دخلت اللغة الموحدة واصبح لها مستوى من الفصاحة مقرر معروف » (٥٢) . وينبغي ان تكون تلك العناصر معواناً للمؤرخين على فهم الكيفية التي انتقل بها العرب من حال القبلية الى حال « المجتمع العربي » او الشعب بمفهومنا القومي المعاصر ، ومن حال التوزع اللغوي في لهجات متباعدة الى حال (الوحدة اللغوية) التي عزز الاسلام والشعور القومي تماسكها واستمرارها منذ فجر الاسلام الى اليوم على نحو لا تعرفه لغة على وجه الارض . ومن هنا تكون الابحاث العلمية الرصينة التي عقدت وتعد على دراسة لهجات بعض القبائل العربية مسوغة وتشكل اسهاما علميا يكمل الاطار العام الذي دفع بفكرة اعادة كتابة التاريخ العربي الى الوجود ، ويلتقي - في هذا الاتجاه - مع النشاط اللغوي الذي يحظى بعناية اللغويين المحدثين في دراسة لهجات الاقاليم والقبائل والشعوب بما في ذلك بعض مناطق الوطن العربي ، وان كان المنطلق الاساسي عند هؤلاء هو ان « اللهجات » عناصر لغوية لا يمكن اغفالها لانها جزء من الظاهرة اللغوية .
بصرف النظر عن فكرة الفصحى والعامية ، او الازدواج اللغوي .
Le Langage

الحواشي والمصادر :

- (١) انظر « مقاييس اللغة » و « لسان العرب » مادة (لهج) .
- (٢) في اللهجات العربية : ١٦ (القاهرة ١٩٦٥) .
- (٣) انظر فيها : معجم « العين » للخليل : ١٠٤/١ . بتحقيق د. عبد الله درويش (بغداد ١٩٦٧) ، و « جهرة اللغة » لابن دريد : ١٥٣/١ ، و « الابدال » لابي الطيب اللغوي : ٢٣٠/٢ ، بتحقيق عز الدين التنوخي (دمشق ١٩٦٠) ، و « الكتاب » لسيبويه : ٢٩٥/٢ ، و « الخصائص » لابن جني : ١١/٢ ، بتحقيق النجار (القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٦) ، و « خزنة الادب » للبغدادي : ٤٩٥/٤ (بولاق ١٢٩٩ هـ) ، و « الزهر » للسيوطي : ٢٢١/١ ، و « اللسان : كشش » ، و « تاريخ آداب العرب » للرافعي : ١٣٨/١ (الاستقامة ١٩٤٠) .
- (٤) جهرة اللغة : ٥/١ ، ابدال ابي الطيب اللغوي : ٢٣٠/٢ ، اللسان : كشش . و يروى البيت في خزنة الادب : ٤٩٥/٤ بغير ابدال ، أي : فميناك عينها ...
- (٥) الصاحبى في فقه اللغة لابن فارس بتحقيق مصطفى الشومى (بيروت ١٩٦٣) .
- (٦) الابدال لابي الطيب : ٢٣٠/٢ . وهذه الظاهرة اللهجية مسموعة الى اليوم في بعض مناطق العراق والكويت وبادية الشام والجزيرة العربية وفلسطين واليمن وغيرها .
- (٧) انظر : العقد الفريد لابن عبد ربه : ٤٧٧/٢ ، بتحقيق احمد أمين وآخرين (القاهرة ١٩٤٨ - ١٩٥٣) ، وتاج العروس للزبيدي : كسكس (القاهرة ١٣٠٦ هـ) ، والمزهر : ٢٢١/١ ، والصاحبى في فقه اللغة : ٥٣ ، والخصائص لابن جني : ١٢/٢ ، وخزنة الادب : ٤٩٥/٤ .
- (٨) انظر : القلب والابدال لابن السكيت : ٢٤ (ضمن الكنز اللغوي في اللسان العربي) نشر المستشرق أوجست هفتر (بيروت ١٩٠٣) ، الخصائص : ٤١١/١ (ط الهلال) ، المزهر : ٢٢١/١ ، سر الصناعة لابن جني : ٢٣٥/١ -
- ٢٣٧ (ط ١ بمصر ١٣٧٤ - ١٩٥٤) تحقيق لجنة من الاساتذة ، الفصل للزمخشرى : ٣١٨ ، شرح شافية ابن الحاجب : ٢٠٢/٣ ، بتحقيق محمد الزفزاف (٤ اجزاء ، ط حجازي بالقاهرة ، بلا تاريخ) ، العين للخليل : ٥١ ، شرح الفصل لابن يعيش : ١٤٩/٨ - ١٥٠ (الطباعة النورية) .
- (٩) المزهر : ٢٢١/١ ، وتهذيب اللغة للزهري : ١١١/١ (ط القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٧) .
- (١٠) شرح الشافية : ٢٠٢/٣ ، جهرة اللغة : ١٣٨/١ (ط العثمانية ١٣٥١ هـ) ، والصاحبى : ٥٣ .
- (١١) شرح الفصل لابن يعيش : ١٤٩/٨ .
- (١٢) الصاحبى : ٥٣ ، خزنة الادب : ٤٩٥/٤ ، تهذيب اللغة : ١١١/١ ، الخصائص : ٤١١/١ .
- العين : ١٥٦ ، وجاء في شرح القصائد السبع الطوال لابن الانباري : ٤٥٥ . من هذه اللهجة قول الزبير بن بكار :
- قال الوشاة لهند عن تصارمنا
- ولست أنسى هوى هند وتنساني
- يريد « أن تصار منا » فأبدل الهمزة عينا .
- كتاب « النقط » : ١٤٣ (مع كتاب المجتمع لابى عمرو الداني ت ٤٤٤ هـ) بتحقيق محمد احمد دهمان (دمشق ١٩٤٠) .
- (١٥) هذا الابدال شائع مسموع الى اليوم في بعض مناطق اليمن ، وبادية الشام ، وصعيد مصر في نحو قولهم : سعال ، أي (سؤال) ، عالة (آلة) ، لع (لا) أو : لا ، النافية المحققة الهمز .
- (١٦) ينظر فيها : ابدال ابي الطيب اللغوي : ٢٩٠/١ ، ابدال ابن السكيت : ٢٣ ، المزهر : ٢٢٢/١ سر صناعة الاعراب : ٤٦/١ ، البحر المحيط لابي حيان الاندلسي : ٣٠٧/٥ ، معجم (مطبعة السعادة ١٣٢٨ هـ) ، معجم

- (٢٨) الهوامع للسيوطي : ٢٣/٢ (مطبعة السعادة
١٣٢٧ هـ) .
- (١٧) البحر المحيط : ٣٠٧/٥ ، هـم الهوامع : ٢٣/٢ .
- (١٨) سر صناعة الاعراب : ٢٤٦/١ .
- (١٩) ابدال أبي الطيب : ٣١٨/٢ : والبيت
للشاعر الاعشى الذي ينتهي نسبه الى (قيس)
القحطانية اليمنية الاصل ، لا قيس عيلان ،
وكذا بقية القبائل النسوبة اليها هذه اللهجة
يمينية أصلا .
- (٢٠) انظر فيها : لسان العرب / نطا . الزهر :
٢٢٧/١ ، الاقتراح للسيوطي : ٨٣ - ٨٤
(ط العثمانية ١٣٥٩ هـ) ، الفائق في غريب
الحديث للزمخشري : ٨/١ (القاهرة ١٩٤٥ -
١٩٤٨) .
- (٢١) انظر تفسير الطبري (الجامع لاحكام القرآن) :
٢١٦/٢٠ (ط القاهرة ١٩٦٧) .
- (٢٢) الكتاب لسيبويه : ٢٥٩/٢ .
- (٢٣) نفسه : ٢٦٠/٢ .
- (٢٤) الخصائص : ١١/٢ ، خزنة الادب : ٥٩٦/٤ ،
الصاحبي في فقه اللغة : ٤٨ ، تهذيب الالفاظ
لابن السكيت : ٢٠٧ (تح : لويس شيخو
اليسوعي ، طبعة مصورة عن طبعة بيروت
١٨٩٥) ، النصف لابن جني : ٣٢٢/١ بتحقيق
ابراهيم مصطفى وآخرين (ط القاهرة ١٩٥٤)
وسر صناعة الاعراب له : ٢٣٥/١ .
- (٢٥) خزنة الادب : ٣١١/٢ . واراد هنا : ما في
قومها احد يفضلها ، اقام الفعل في موضع
الاسم ، ضرورة ، اذا كان الفعل نعتا .
- (٢٦) انظر الهامش رقم ٢٤ ، وانظر أيضا :
الصاحبي : ٤٨ ، الزهر : ٢٥٥/١ ، وقيد
المرحوم الدكتور صبحي الصالح عن سيبويه
أن «ذلك في لغة جميع العرب الا أهل الحجاز»
وانظر كتابه : دراسات في فقه اللغة : ٦٦ ،
ولعل مما يرجح هذا القول وجود بقايا نطقية
مسموعة من هذه اللهجة في مناطق نجد وبادية
الشمال وجنوب اليمن ...
- (٢٧) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية :
٥٠/١ (ط الهلال ١٩٣٦) .
- الكتاب : ١١٠/٤ - ١١٣ .
الصاحبي : ٥٥ ، أمالي القاضي : ٧٧/٢ ،
ابدال أبي الطيب : ٢٥٧/١ ، ٢٦٠/١ ،
وابدال ابن السكيت : ٢٩ ، والكتاب :
١٨٢/٤ ، سر صناعة الاعراب : ١٧٥/١ -
١٧٧ ، شرح الشافية : ٢٨٧/٢ ، التصريف
الملوكي : ٣٢٩ ...
المواضع السابقة نفسها .
- الزهر : ٢٢٢/١ ، وفي ابدال ابن السكيت :
٢٨ قال أبو عمرو : قلت لرجل من بني حنظلة :
من أنت ؟ فقال : فقيص ، قلت : من أيهم ؟
فقال : مرج ، أي : (فقيمي ، مري) .
- ابدال أبي الطيب : ٢٦٠/١ .
الكتاب : ٣٦١/١ و ١٨٢/٤ .
ابدال أبي الطيب : ٢٦١/١ .
القلب والابدال لابن السكيت : ٢٨ ، الكتاب :
٣٦١/١ ، ابدال أبي الطيب ، الصفحات :
٢٥٧/١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، الزهر ٢٢٢/١ ،
أمالي القاضي : ٧٧/٢ - ٧٨ ، نوادر أبي زيد
الانصاري : ١٦٤ (ط بيروت ١٨٩٤) .
شرح الشافية لابن الحاجب : ٢٨٧/٢ .
لسان العرب : (أمم) .
- وانظر فيها العقد الفريد : ٤٧٦/٢ - ٤٧٧ ،
خزنة الادب : ٥٩٦/٤ ، الزهر : ٢٢٣/١ ،
مجالس ثعلب : ٧٣/١ ، هـم الهوامع :
٧٩/١ ، مقدمتان في علوم القرآن : ٢٢٢
(مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٥٤) ، وفي
اللسان (أمم) : (يرمي ورائي بامسيف ..)
بدلا من السهم .
- محمد حسن ال ياسين : الدراسات اللغوية
عند العرب : ٤٧٨ (ط بيروت ١٩٨٠) .
الزهر : ٢٢٢/١ .
نفسه .
- السابق نفسه ، والعقد الفريد : ٤٧٥/٢ ،
٣٢٠/٣ . وقيل الشفشفة (بالفاء) لغة
اليمن ، تجعل الكاف شيئا مطلقا ، ولعله
تحريف . لكن هناك لهجة تجعل الكاف غالبا
شيئا ، كما في العراق اليوم .

لطيف حمل هذا العنوان وتضمن ما يمكن ان يسمى احصاء للكلمات العربية في القرآن، أو عزوا لها الى القبائل التي تكلمت بها ، وكذا الى اللغات الاجنبية التي وفدت منها. وألف في هذا مقاتل بن سليمان ، وهشام ابن محمد الكلبي (ت ٢٠٤هـ) ، والهيم بن عدي (ت ٢٠٦هـ) ، والفراء (ت ٢٠٧هـ) ، والاسمي (ت ٢١٦هـ) ، وابو زيد الانصاري (ت ٢١٥هـ) ولم يصل اليها منها الا كتاب ابن عباس برواية ابن حسنون ويبدو من استقراء مضمون هذه « اللغات » في الكتاب انها معقودة على الكلمات التي لم تكن مألوفة شائعة في لهجات القبائل العربية كلها ، وان ابن عباس لم يدونها أو يجمعها بنفسه في هذا الكتاب ، بل أملاها أو اشار اليها كما فصل في كتابه الآخر « غريب القرآن » ، ثم جمعت ورتبت من بعده . وقد نشر كتاب « اللغات في القرآن » بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد (الطبعة الاولى ١٩٤٦ عن مطبعة الرسالة بالقاهرة ، والثانية عن دار الكتاب الجديد في لبنان ١٩٧٢) .

د. عبده الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية : ١١٠ (ط دار النهضة - بيروت ١٩٧٢) .

(٥٣)

- (٤٣) مجالس ثعلب : ٨٠/١ .
- (٤٤) الصاحبي : ٥٣ .
- (٤٥) الجهمرة لابن دريد ، واساس البلاغة (عجر ف) .
- (٤٦) مختار الصحاح للرازي (عجر ف) ، وعنه - كما يبدو - أخذ « المعجم الوسيط » فقال المعجزة والمعجزة : جفوة في الكلام .
- (٤٧) د. شوقي ضيف : العصر الجاهلي : ١٣٢ هامش ٣ .
- (٤٨) الزهر : ٢٢٣/١ ، وانظر اللسان (لخخ) .
- (٤٩) ويرى باختلاف يسير في « نواذر » ابي زيد الانصاري : ١٤٧ .
- (٥٠) انظر القلب والابدال لابن السكيت : ٤٢ ، والزهر : ٢٢٢/١ .
- (٥١) المقد الفريد : ٤٧٦/٢ ، خزانة الادب : ٥٩٦/٤ . ومن هذه الظواهر اللهجية قلب التاء كافا في ضمير المخاطب والتكلم نحو : أحسنت ، يقولون : أحسنك . وفي كنت يقولون : كنك ، وتلك ظاهرة معروفة في اليمن قديما ، وما تزال تسمع في بعض مناطقه الى اليوم . وانظر في ذلك : العربية : ١٣ ليوهان فك (ترجمة د. النجار ، القاهرة ١٩٥١) ، والشعر والشعراء لابن قتيبة : ٤٠٨/١ (بتحقيق شاکر ١٩٦٢) .
- (٥٢) ينسب اقدمها الى ابن عباس (٦٨هـ) بكتاب

